

أبو الحسن الشاذلي: ماذا بقي من تراثه حيا بتونس؟

د.جمعة شيخة

جامعة تونس الأولى

من الصعب الترجمة لأبي الحسن الشاذلي لسببين على الأقل:

- 1 — اختلاط ما هو تاريخي حقيقي في حياته بما هو خرافي عجائبي.
- 2 — ثغرات في بعض مراحل حياته يصعب سدها بالاعتماد على ما لدينا من مصادر، لأن هذه المصادر أغلبها من نوع كتب المناقب التي لا نجد فيها عادة ما نرغب فيه لضبط ترجمة علمية للشاذلي.

ومع ذلك يمكن القول: إن هذه المصادر وغيرها أجمعت على أن الشاذلي هو أبو الحسن علي بن عبد الجبار بن تميم الحسني الشهير بالشاذلي (بالكسر) أو الشاذلي (بالضم). واتفقت على أن ولادته كانت في منطقة غمارة بين سبتة وطنجة أي في شمال المغرب. ولكنها اختلفت في سنة ولادته ورجح أغلبها سنة 593هـ/1196 باستثناء دائرة المعارف الإسلامية التي ذكرت أنها كانت سنة 583/1187¹. وتوصل بعض المصادر نسبته إلى الرسول ﷺ عن طريق إدريس الأكبر مؤسس مدينة فاس، والحسن بن علي بن أبي طالب.. بدأ دراسته للعلوم الدينية بمدينة فاس، واهتم أول أمره بعلم الكيمياء بمفهومه الكلاسيكي وهو تصفية المعادن وتحويلها إلى الذهب. ولكنه سرعان ما ترك هذا المجال ليتحول نهائيا إلى علم التصوف. لقد تحول من تصفية المعادن إلى تصفية النفوس.

¹ EI (2)/IX/P: 176.

ومنذ شبابه كان يحلم بلقاء القطب الأكبر للمتصوفة، لذا قرر حوالي سنة 1223/620 السفر إلى المشرق لمزيد الأخذ عن علمائه أولاً، ومحاولة تحقيق أمنياته من لقاء هذا القطب ثانياً. مر في سفره بتونس ثم مصر، ومنها إلى الحجاز، ثم قصد العراق حيث التقى في بداية العقد الثالث من القرن السابع للهجرة بالشيخ أبي الفتح الواسطي (ت. 1234/632)².

وإذا كان هدف الشاذلي من سفره إلى المشرق هو لقاء قطب الصوفية، فقد أشار عليه شيخه الواسطي بالعراق بالرجوع إلى مسقط رأسه لأن القطب موجود فيه ويقصد أبا عبد الله بن مشيش (ت. 624-1227). هل كانت هذه الإشارة هي عبارة عن تخلص الشيخ من تلميذ بدا عليه من الذكاء والنباهة والعلم والتقوى ما يجعله منافساً خطراً عليه؟

على كل امتثل التلميذ إلى نصيحة شيخه ورجع إلى بلاده والتقى بقطب الزمان أبي عبد الله عبد السلام بن مشيش برابطته في جبل العلم قرب تطوان. وصحبه بضع سنوات إلى أن نصحه بالانتقال إلى إفريقية. هل كانت نصيحة الشيخ لمريده راجعة إلى ما اندلع من فتن واضطرابات في منطقة الريف ذهب ضحيتها ابن مشيش نفسه؟ للمرة الثانية يمتثل المريد لشيخه وينتقل الشاذلي إلى تونس ليستقر فيها مدة. وبعد أن أرسى طريقته بإفريقية انتقل إلى الإسكندرية فكان بها محل احترام العامة والخاصة، ثم عاد إلى تونس للمرة الثالثة ليقوم بمدة مجددا العهد مع مريديه وأصحابه بها، ثم غادرها نهائياً إلى الإسكندرية.

والمصادر متفقة على أنه توفي وهو في طريقه إلى الحج سنة 1258/656 ودفن في حميرة بصحراء عيذاب من صعيد مصر.

² EI (2) / IX/ P:176. ذكرت أن ذلك تم سنة 1218/615

أبو الحسن الشاذلي بتونس

كم زار الشاذلي تونس من مرة؟ أين استقر فيها؟ لماذا ارتحل عنها؟ هذه أسئلة ثلاثة وهناك غيرها يمكن أن تلقى. وسنحاول الإجابة عنها ترجيحاً لا يقيناً، نظراً إلى أن المصادر والمراجع التي بين أيدينا لم تعر هذا الجانب ما يستحقه من عناية.

الشاذلي بتونس للمرة الأولى:

زار الشاذلي تونس في المرة الأولى وهو في سن الشباب: وهي زيارة عبور لا زيارة إقامة باعتبار أن تونس كانت على الطريق البرية لقوافل الحجيج من المغربين الأوسط والأقصى. ونستبعد أن يكون الشاذلي قد أطلال المقام بعاصمة الحفصيين لأن هدفه هو الحج ولقاء قطب الصوفية بالشرق. لكن ليس غريباً أن يكون قد تعرف بمصلى العيدين بباب المنارة لأول مرة. بمن سيكون صديقه ومضيفه بإفريقية، ونعني بذلك أبا الحسن على الخطاب. وبالنسبة إلى التحديد الزمني ذكرت جل المصادر أنه مر بتونس في حدود سنة 1224/621، وبالتالي من المفترض أن يكون في هذه السنة أو بعدها مباشرة في الشرق. لكن صاحب مقال دائرة المعارف الإسلامية ذكر أن الشاذلي كان بالشرق في سنة 1218/615 بدليل أنه التقى في هذه السنة بشيخه الواسطي³.

الشاذلي بتونس للمرة الثانية

لقد رأينا أن الشاذلي رجع إلى المغرب امتثالاً لنصيحة شيخه الواسطي. وفي المغرب اكتملت تجربته الصوفية أو تكاد مع شيخه ابن مشيش. ورأينا أن الشاذلي امتثل ثانية لنصيحة شيخه المغربي عندما أمره بالرحلة إلى إفريقية خوفاً منه أو خوفاً عليه. وإذا كان من الصعب تحديد زمن هذه الرحلة، فمن المؤكد أنه سافر إلى تونس قبل وفاة شيخه ابن مشيش أي قبل سنة 1228/625. ورجحت بعض المصادر سنة 1227/624.

³ انظر التعليق عدد 2.

واستقر أبو الحسن بقرية شاذلة في رعاية صديقه ورفيق دربه أبي الحسن علي الخطاب (ت. 1274/671) وأبي محمد عبد الله الحبيبي (ت. 1296/693).

وشاذلة هذه التي ينتسب إليها أبو الحسن قرية « على الطريق الرابطة بين تونس ومدينة باجة في الشمال، وتبعد عن الحاضرة تونس بحوالي 20 كلم في اتجاه الشمال الغربي، وتعرف هذه القرية اليوم بمشير شاذلة بسهل المرتاقية مسقط رأس الولي الصالح وصديق أبي الحسن الشاذلي، علي الخطاب، وبها يوجد اليوم قبره وزاويته. وقد أقام أبو الحسن بهذا المكان مدة جعلت الناس ينسبونه إليه فعرف بالشاذلي⁴، منذ ذلك الحين، وفي هذا المكان أو غيره تذكر كتب المناقب أنه التقى بالخضر⁵. ومنه كان أبو الحسن يسافر إلى جبل زغوان للتفرد والتعبد، وليس من باب الصدفة أن يختار أبو الحسن جبل زغوان لهذا الغرض، وهو يشترك مع بعض الأماكن في الريف المغربي كشفشاون مثلاً في كثير من الخصائص من حيث الموقع والمناخ. وقد أصبح هذا الجبل منذ ذلك الوقت المكان المفضل للاعتكاف لدى متصوفة إفريقية.

كان أبو الحسن وهو بشاذلة يتردد على ضاحية قرطاجنة للأخذ عن الشيخ المتصوف أبي سعيد الباجي (ت. 1231/628) وهو الولي المدفون قرب قرطاجنة في الربرة المعروفة باسمه اليوم "سيدي بو سعيد" «

وانتقل الشاذلي في فترة من فترات إقامته بإفريقيا — يصعب ضبطها — إلى مدينة تونس واستقر بسوق البلاط غير بعيد عن جامع الزيتونة، فالتف حوله المريدون وكثر زواره وتلاميذه، ومن سوق البلاط كان الشاذلي يذهب طلباً للخلوة والتعبد إلى جبل غير بعيد من منزله (حوالي ميل) في اتجاه الجنوب من العاصمة، وهو الجبل المعروف بجبل التوبة أو

⁴ وتذكر بعض المصادر أنه سمي بالشاذلي لأنه شاذ لله أي منقطع.

⁵ الخضر: شخصية مذكورة في القرآن باعتباره نبياً ولها، وهو عند المتصوفة شخصية مفضلة عند الله بطوى له الزمان والمكان في لمح البصر، وهو مسخر لخدمة الأولياء وإعانتهم، إنه بمثابة نقيب الأولياء

جبل الرحمة، وفي الرواية الشفوية بجبل الزلاج (مقبرة مدينة تونس). وفي هذا الجبل كان الشاذلي يقضي ليله متعبدا متجهدا، وفي أعلى هذا الجبل نجد المغارة التي كان أبو الحسن ينزل فيها وينقطع عن العالم الخارجي، وفي قمة الجبل وعلى بعد بضعة أمتار من المغارة هناك مقام أبي الحسن الذي بناه بنفسه، وبالمغارة والمقام تقام أسبوعيا الأحزاب والأذكار تخليدا للطريقة الشاذلية.

ولا شك أن ما كان عليه أبو الحسن من علم ومعرفة، وما كان عليه من ورع وزهد مكنه من استقطاب الحركة الفكرية والدينية والروحية: فهو العالم يغذي العقول دينيا وفكرا، وهو المتصوف يملأ القلوب خشوعا ورهبة وهو المتعبد يزكي النفوس ورعا وتقوى، وهو المصلح يجلي الضمائر نقاء وصفاء. وبهذا التفرد والتميز، أصبح الشاذلي هدفا لنبال علماء تونس والقيروان، فسخروا منه ومن كراماته وخاصة ما ادعاه من التقائه بالخضر عليه السلام، واتهموه بأنه فاطمي من غلاة الشيعة ووجدوا في انتسابه إلى الرسول ما يدعم هذه التهمة. وكان من أشد أعدائه أحد علماء تونس الكبار وهو أبو القاسم بن السراء. فلقد رأى في الشاذلي خطرا عليه في الزعامة العلمية والدينية والروحية بالعاصمة الحفصية، فسعى به لدى الخليفة أبي زكرياء الحفصي (حكم ما بين 1227/625 - 1249/647) وأوغر صدره عليه، فقبض على أبي الحسن وأحيل على القضاء فانعقدت محاكمة لأبي الحسن في قصر الخليفة بالقصبة. وقد واجه الشاذلي في محنته هذه عددا من العلماء المناوئين له ظلما وحسدا. ومع الأسف لا تذكر لنا المصادر التهم التي وجهت لأبي الحسن، ولا كيف دافع عن نفسه لدحضها. وتكتفي بالإشارة إلى أن الشاذلي بز علماء تونس وأفحمهم، واقتنع الخليفة ببراءته. ولكنه، مع ذلك، سجنه بسجن القصبة بعد أن أقنعه ابن السراء أن أمثال الشاذلي وأتباعه يمثلون خطرا على دولته الفتية، وكان لأبي الحسن بعض المتعاطفين معه من أمراء العائلة الحفصية أمثال أبي عبد الله التيجاني. وقد تدخل هذا الأخير فأطلق سراحه. واعتبر أبو الحسن أنه أهين وأن الإقامة بتونس أصبحت غير ممكنة مع حساده ومناوئيه،

وبلاط يستمع إلى كيدهم وسعايقهم، فقرر الرحيل إلى مصر مع جملة من أتباعه في حدود سنة 1241/639 أو قبلها بقليل. ووصلت سعايات أعدائه — وخاصة عدوه اللدود ابن البراء — إلى مصر، فتمت مضايقته بالإسكندرية فاعتقل بها. وتذكر كتب المناقب أنه استطاع الفرار من سجنه بأعجوبة والتحق بالقاهرة وفيها قابل — كما تذكر المصادر — الملك الصالح الأيوبي سنة 1241/639 وانحى له هذا الملك تعظيما وإجلالا، وفي ذلك إشلوة من كتب المناقب إلى خضوع سلطان الأشباح إلى سلطان الأرواح.

أبو الحسن الشاذلي بتونس للمرة الثالثة

يبدو أن إقامة أبي الحسن بمصر لم تطل إذ عاوده الحنين إلى تونس حيث المغارة والمقام بجبل التوبة، حيث الأصحاب والأتباع، فعاد إليها للمرة الثالثة. ويبدو أن هذه العودة كانت مباشرة بعد مقابلة الملك الصالح الأيوبي سنة 1241/639 أي في حدود سنة 1242/640 ودليلنا على ذلك هو أن أبا العباس المرسي دخل تونس سنة 1242/640، وكان أبو الحسن قد سبقه إليها⁶. ويبدو أن الشاذلي لم يعد إلى منزله بسوق البلاط في عاصمة الحفصيين، بل استقر بدار أخرى بباب الحديد (بطحاء الشعرية). وواصل الشيخ ترسيخ طريقته في التصوف السني بتونس. ولم يعد السلطان ليتجراً عليه كما وقع سابقا بعد أن أصبح قطب الصوفية مغربا ومشرقاً. وكان أبو الحسن كثير التنقل بإفريقية؛ كان ينتقل من تونس إلى القيروان، ومن المسروقين (قرية قرب القيروان) إلى المصيرين (قرية شمال غربي تونس)، ومن جبل التوبة إلى جبل المنار ومن جبل زغوان إلى جبل إشكل. وفي مدينة تونس نفسها كان ينتقل من منزله بباب الحديد إلى مغارته ومقامه بجبل التوبة وإلى جامع الصفصافة الواقع بجوار سور القصبة على الربوة المشرفة على سبخة السيحومي. ولهذا أكثر

⁶ جاء في كتاب العبر لابن عبد الوهاب ج1. 488 أن أبا الحسن رجع إلى تونس للمرة الثالثة في عهد المستنصر (1249/647 - 1276/675) ولم يرجع إلى مصر إلا بعد نكبة صديقه محمد التيجاني، وهذا لا يستقيم مع التواريخ المضبوطة التي بين أيدينا

أتباعه. وكان منهم أصحابه الأربعون⁷ الذين نوهت بهم كتب المناقب، وأصبح أغلبهم من الأولياء الصالحين⁸. وكان يجتمع بهم بجامع الصفصافة. وكان أقربهم إليه رفيق دربه أبو الحسن علي الخطاب (خليفته في تونس)، وتابعه الأمين أبو العباس المرسي (خليفته بمصر). وقد واصل هؤلاء الأصحاب نشر طريقته بنفس الحماس والإيمان بعد رحيله فهاثيا إلى مصر، فكان للنسبة التي غرسها في ربوع إفريقية أن أينعت وانتشر عبيرها في المغرب والمشرق العربيين ثم في العالم الإسلامي بأكمله⁹.

وهكذا لم يخرج الشاذلي من تونس فهاثيا إلا بعد أن اكتمل البناء النظري للتصوف المغربي. ونرجح أن خروجه كان في حدود سنة 1244/642 لأننا نجد في كتب المناقب أنه كان موجودا بتونس وغسل بنفسه صديقه أبا علي سالم التباسي (ت. 1244/642)، كما تذكر هذه الكتب أنه دخل الإسكندرية أياما قليلة بعد وفاة أبي الحجاج الأقصري (ت. 1244/642). هذا ومن المتأكد أن أبا الحسن كان سنة 1248/646 بمصر لأننا نجد في كتب المناقب أنه كتب لأصحابه بتونس رسالة مؤرخة ب 15 محرم من سنة 1248/646.

⁷ ترجماتهم موجودة في المخطوط عدد 18555 بدار الكتب الوطنية - تونس.

⁸ أغلب أصحاب الشاذلي من إفريقية باستثناء أبي عبد الله الفاسي المغربي (ت. 1261/659)، وقد راسله الشاذلي من مصر سنة 1268/656، وأبي العباس المرسي الذي التقى به في تونس سنة 1242/640 ورحل معه إلى مصر سنة 1244/642.

⁹ أغلب أصحابه كتبوا في مناقبه كعلي الهواري (ت. 1265/664) وعبد الله السرجاني (ت. 1300/699): كتب في مناقب المغارة، وعلي بن عبد الله بلال (ق 13/7) ومحمد ابن السلطان المسروقي (ت. 1302/701) وأبي فارس عبد العزيز بن أبي الفتوح. ومن رافقه من أصحابه إلى مصر وكتبوا في مناقبه نذكر أبا العباس المرسي (ت. 1286/685). وقد أصبح المرسي خليفة الشاذلي بعد وفاته بمصر، وأبا العزائم ماضي بن سلطان المسروقي (ت. 1318/718) ولابن سلطان هذا زاوية في أسفل مقام الشاذلي بجبل الفتاح (الجلاز)، وأبا علي يونس بن السماط البكري المهدي، بايع الشاذلي بالقطابة في الإسكندرية، وأبا عبد الله الناسخ.

وفي مصر وفي الإسكندرية استقطب أبو الحسن التصوف السني وكان يدرس بالقاهرة وينظر العلماء في مدارسها ومساجدها العديدة، ولم تنقطع صلته — عن طريق الرسائل — برفاقه واتباعه بتونس¹⁰.

وبعد وفاة أبي الحسن تفرعت طريقته إلى شايبة بإفريقية والعروسية بليبيا والجزولية بالمغرب والوفائية بمصر. كما انتشرت زاويا الشاذلية — زيادة على المغرب العربي ومصر — بالمشرق العربي في سوريا والحجاز. وامتدت شرقا إلى الهند والصين وأندونيسيا ووصلت إلى تركيا وبلاد البلقان شمالا (زاوية لأبي الحسن في كوسوفو).

مؤلفاته أبي الحسن

الطريقة الشاذلية هي طريقة عملية لا نظرية، لهذا لا نجد لمؤسسها كتباً نظرية كثيرة وعميقة. وقد احتفظت لنا المكتبات بتونس وغيرها ببعض كتب الشاذلي، تتعلق بالحكم والوصايا للسالكين والمريدين¹¹. ومن كتبه المطبوعة نذكر على سبيل المثال "الآيات المحكمة بشأن المحكمة"، وكتاب "السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل". أما ما اشتهر به أبو الحسن فمجموعة من الأحزاب (أكثر من 20 حزبا) أشهرها حزب البحر، وحزب البر (الحزب الكبير) وحزب الفتح، وحزب الحمد، وحزب التوسل وتوجه حزب التوسل وحزب اللطف وحزب التوحيد وحزب النصر وحزب البحر وحزب الإخفاء والحزب

¹⁰ من هؤلاء الأصحاب نذكر أبا علي التباسي (ت. 1244/642) غسله الشاذلي بنفسه عند وفاته بتونس، وأبا علي طاهر المزروعي (ت. 1249/646)، وأبا عبد الله محمد الشريف: عالم ومتصوف، درس بالمدرسة التوفيقية، وكان خطيب جامع الهواء بيطحاء معقل الزعيم اليوم، وهو دفين جامع الصفصافة، مركز لقاء الشاذلي بأصحابه الأربعين، أثناء إقامته بتونس، وأبا عبد الله محمد الربيعي (ت. 1263/661)، وأبا زيد إسماعيل الهنتاتي (ت. 1264/663) وحسين السيحومي (ت. 1276/674)، وعبد الوهاب المزروعي (ت. 1277/675) وعلي الفرجاني (ت. 1282/681).

¹¹ مخطوطات تونس: 419. 9822. 15444.

الخفي. وأغلبها مطبوع¹². وتوجد كذلك مخطوطة¹³. وللحزبين الأولين أي حزب البر وحزب البحر شروح عديدة أغلبها مطبوع.

ونجد العديد من الكتب التي اهتمت بحياة الشاذلي وبمناقبه وبأصحابه وبمناقب المغارة وبأحزابها وشروحها وبقواعد طريقته، من أهمها:

- درة الأسرار لابن الصباغ (1353/751)؛ مطبوع.
- لطائف المنن لابن عطاء الله الإسكندري (مخ تونس: 4359. 44. 986).
- المفاخر العلية في المآثر الشاذلية لأحمد بن محمد عياد الشافعي.
- كتر الصوفية في أمور الشاذلية (مخ تونس: 2971).
- تحفة التحف في مناقب أهل الشرف لابن الصباغ ترجم فيه ل77 من أتباع الشاذلي وأصحابه.

- التعريف بأصحاب الشاذلي الأربعين (مخ تونس: 413).
- مفاتيح العز للبرنيسي (شرح لحزب البحر)؛ مطبوع.
- القول المنير في شرح الحزب الكبير لسليمان العجلي المعروف. بالجملة (مطبوع) (ت. 1204)، وشرح أبي زيد عبد الرحمن الفاسي (ت. 1036).

مميزات الطريقة الشاذلية

تتميز الطريقة الشاذلية بمجموعة من الخصائص أهمها:

- 1 — بساطة منهجها وبعدها عن التعقيد والإغراب.
- 2 — تمسكها بالسنة. والكشف الصوفي عندها إذا خالف القرآن والسنة نبذ، لأن القرآن والسنة من الله وهو الضامن لصحتها.

¹² طبعة تونس بدون تاريخ فيها 12 حزبا، و 17 وظيفة.

¹³ مخطوطات تونس 1907. 1995. 2040. 3794.

- 3 — الطريق المستقيم لديها هو الخضوع لأوامر الله والصبر عند الشدائد والمثابرة على القيام بالواجبات.
- 4 — تجنبها الظهور بما من شأنه أن يهين السلوك الاجتماعي العادي، ولهذا كان أبو الحسن وأتباعه يلبسون أحسن لباسهم ويتجنبون ما يسمى بالتخميرة التي يفقد فيها الإنسان توازنه، وإن كانت تسمح في حدود معينة ببعض الحركات والإيقاع.
- 5 — الكرامات وخوارق العادات والمشاهد الغريبة ليست من مبادئها وخاصة في مرحلتها الأولى.
- 6 — تحرض على الدفاع عن الوطن عند تعرضه للخطر الخارجي، وقد قام أصحابها بتونس ومصر بالمشاركة في حرب الصليبيين.
- 7 — الشاذلية طريقة صوفية عملية لا نظرية. ولهذا بقي أتباعها إلى اليوم يرددون أحزابه في أيام معينة من الأسبوع في زوايا ومقامات عديدة في العالم الإسلامي وخاصة في مصر والمغرب وتونس.

زوايا الطريقة الشاذلية وخلواتها ومقاماتها بتونس

للطريقة الشاذلية بتونس اليوم عدة زوايا وخلوات ومقامات من أهمها:

- 1 — خلوته الكائنة في نهاية سوق البلاط، وبداية نهج الصباغين، وهي عبارة عن مسجد صغير يعرف باسم أبي الحسن ويقع أمام منزله حسب إحدى الروايات، أو بجانبه حسب رواية ثانية.
- 2 — الخلوة الكائنة بباب الحديد وبالضبط وراء القوس المسمى بهذا الاسم، وتعرف اليوم بخلوة سيدي محرز. ويبدو أن أبا الحسن كان يتعبد فيها عندما كان يسكن بباب الحديد أثناء إقامته الثانية بتونس.

3 — جامع الصفصافة: ويوجد غربي الروضة المنصورة وهي المقبرة الملكية الحفصية، جوفي الباب المنصور قبلة مقبرة أبي العباس أحمد السقاء حيث بني القسم الأول من المكتبة الوطنية التونسية، وهذا الجامع ديوان الأولياء لأن الشاذلي كان يلتقي فيه بأصحابه الأربعين. وقد وصلوا بعد هجرته إلى مصر فهاثيا الاجتماع فيه. ويعرف جامع الصفصافة اليوم بزاوية سيدي عبد الله الشريف (ت. 1274/673) أحد أتباع الشاذلي الأربعين، وبالتحديد يقع جامع الصفصافة بجوار كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس في نهج صغير يعرف بنهج ابن السراج. وتشرف جامع الصفصافة على سبخة السيجومي، ويعتبر أحد المراكز الروحية للحركة الصوفية بتونس. وقد كتب في المناقب علي بن عمر الهواري (ت. 1265/664)¹⁴ صاحب أبي سعيد الباجي.

4 — المغارة: مغارة طبيعية في جبل التوبة حيث كان الشاذلي يعتكف للعبادة وأثناء إقامته بتونس، وتتسع المغارة في المدخل لنفر قليل من الناس. وكلما تقدم المرء إلى الأمام ضاق المكان. وفي نهايته لا يتسع إلا لشخص واحد. وهذه هي خلوة الشاذلي التي كان ينقطع فيها عن العالم الخارجي. وهي بصفاتها هذه تشبه غار حراء مع اعتبار الفارق. ويحاذي المغارة اليوم بناية حديثة هي عبارة عن مسجد يؤمه أتباع الطريقة لتلاوة القرآن وقراءة بعض أحزاب أبي الحسن وللذكر، وذلك كل يوم جمعة بعد صلاة المغرب، ويوم السبت إثر صلاة الصبح. وهناك عدة كتب ألفت في مناقب هذه المغارة ككتاب أبي محمد عبد الله المرجاني (ت. 1300/699):

مناقب المغارة (مخ تونس: 1011)، ومؤلفات علي بن عمر الهواري (مخ تونس 1855. مخ 3382). وأصبحت مناقب المغارة في هذه الكتب مقترنة بمناقب أبي الحسن ومناقب بعض أصحابه.

¹⁴ السراج: التحلل السندسية، 847/1.

5 — المقام: وهو نفس منزلة المغارة عند أتباع الطريقة الشاذلية ويعتمدون في ذلك على قول أبي الحسن «من زار المغارة ولم يزر المقام لن تقبل زيارته» (مخ تونس 1855 ص: 22).

ويقع المقام في أعلى جبل التوبة يشرف شرقا على البحر وجنوبا وغربا على مقبرة الزلاج، بناه الشاذلي بنفسه بتعليمات من الخضر وإعانة منه حسب إحدى كرامات أبي الحسن، وبطبيعة الحال وقعت إضافات عليه بتكاثر الأتباع والمريدين عبر العصور إلى القرن 19/13 عندما أمر بإعادة بنائه الوزير مصطفى خزندار¹⁵ في أواسط هذا القرن على شكله الحالي.. ويتكون من مدخل كتب في أعلاه الأبيات التالية (طويل):

أبا الحسن المشهور في الناس بالفضل
كفى شرفا أن جددك سيد الرسل
سقاك من العلم الأدنى شربة
فأضحت فحول الشعر من سحبها تملي
وأصبت قطب الأولياء وغوثهم
وقائدهم في حضرة القرب والوصل
طريقتك الغراء نور لمهتد
على منهج للشرع ثابتة الأصل
تعطف على من أم بابك قاصدا
لحضر تكم قد ضاق ذرعا من المحل

ومن الداخل نجد ساحة غير مغطاة بها محراب تقام فيها الصلاة عندما يكون عدد الوافدين كبيرا، ويحيط بهذه الساحة ست حجرات أكبرها خصصت مدفنا لنساء الطبقة الحاكمة بجوار ولية صالحة اسمها مريم، حيكت حول مجيئها إلى تونس أسطورة متداولة في

¹⁵ (ت. 1878/1295)

الأوساط الشعبية. وهناك حجرة أخرى على شكل مسجد صغير مقسمة إلى فضاءين: الفضاء الداخلي هو خلوة أبي الحسن، والفضاء الثاني مكان للدعاء وللصلاة. وهناك ثلاث غرف، اثنتان سفليتان وأخرى في طابق علوي: وهو مكان مخصص لنساء الطبقة الأرستقراطية بتونس.

وبالمقام بئر لها مكانة خاصة لدى أتباع الطريقة الشاذلية ولما لها قداسة في النفوس شرباً وطهارة.

ويجتمع أتباع الطريقة الشاذلية بالمقام ليلة الجمعة من كل أسبوع كما سنتبين فيما بعد.

الطريقة الشاذلية اليوم بتونس

لأتباع الطريقة الشاذلية بتونس عادات وتقاليد في ممارسة طريقتهم حسب لقاءات مضبوطة في:

1 — المغارة كامل السنة: ويتم اللقاء يوم الجمعة بين صلاحي المغرب والعشاء: يبدأ المريد بصلاة المغرب ثم يقرأون ستة أحزاب من القرآن الكريم إلى أن يؤذن لصلاة العشاء، بعد صلاة العشاء يقرأون سورة ياسين وقصار السور بداية من سورة "الضحى" ثم يقرأون حزب الليل ثم حزب البحر من أحزاب الشيخ أبي الحسن وينتهي اللقاء بذلك. وفي اليوم الموالي — أي يوم السبت — يتم اللقاء صباحاً: يصلي الجماعة الصبح ثم يقرأون المسبوعات¹⁶ لمدة حوالي ساعتين، بعد هذه التلاوة يدخل شيخ الطريقة الشاذلية — وهو اليوم الشيخ حسن بلحسن — مع الحزابة (قراء الأحزاب) فتقرأ الفاتحة ثلاث مرات وهي المدة التي يتمكن فيها كل فرد من الجلوس في مكانة المعين له. ثم يقرأ الجماعة مع الشيخ حزبا من أحزاب أبي الحسن، ثم يدخل المنشدون فينشدون قصائد حسب الحزب المقروء وحسب المناسبات الدينية. فمع حزب الحمد مثلاً تقرأ قصائد في حمد الجلالة، ومع حزب

¹⁶ وهي سور تقرأ سبع مرات كسورة الإخلاص وسورة الفلق، وسورة الناس، وسورة الفتح.

اللفظ تقرأ قصائد في اللطف، وفي مولد الرسول ﷺ تنشد قصائد في مدحه. وتقرأ أحياناً فصول من كتاب الشفاء للقاضي عياض. وفي نهاية هذه الرحلة يخرج شيخ الطريقة وتغلق الأبواب وتطفأ الأنوار، ويدخل الذكارة (قراء الذكر) ومعهم شيخهم — وهو اليوم الشيخ محمد برحومة — ويدوون بترديد اسم الجلالة بصوت منخفض ثم يرتفع الصوت شيئاً فشيئاً، وكلما ارتفع الصوت ازدادت السرعة، وبعد اسم الجلالة يردد الجماعة وبصوت واحد الضمير هو هو بنفس الطريقة السابقة. في نهاية الذكر تفتح الأبواب ويضاء النور ويدخل شيخ الطريقة ويقرأ الجميع سورة ياسين، يتلو ذلك دعاء من الشيخ، ثم يؤتى بالسماط وهو خبز وزيتون فيأكلون منه الحاضرون وينصرفون.

2 — المقام: ويلتقي فيه أصحاب الطريقة الشاذلية كل يوم خميس مساءً (ليلة الجمعة) مدة 14 أسبوعاً من أول خميس من جوان إلى آخر خميس من أوت، وسبب¹⁷ ذلك أن الرسول ﷺ زار أبا الحسن في المقام وهو نائم وأعلمه أنه سيزور المقام في الصيف من كل سنة، وذلك ليلة الجمعة في النصف الثاني من الليل، ولهذا دأب أتباع الطريقة القيام كامل ليلة الجمعة خلال هذه الأسابيع الأربعة عشر.

وزيادة على هذه الأسابيع يلتقي أتباع الطريقة الشاذلية في المقام في خمسة مواسم دينية هي: ليلة المعراج، ليلة الوقوف على عرفة، ليلة المولد، ليلة السابع والعشرين من رجب، ليلة الخامس عشر من شعبان.

ويبدأ الحفل يوم الخميس في المقام من العصر إلى المغرب بالعبادة، ثم يتلو قراء جامع الزيتون ما تيسر من القرآن الكريم، كما تنشد بعض القصائد المدحية كالبردة. ومع اقتراب المغرب تنشد الشاذلية¹⁸، بعد صلاة المغرب يتناول الحاضرون طعام العشاء¹⁹، ثم

¹⁷ هذا تفسير أهل الطريقة الشاذلية بتونس.

¹⁸ قصيدة في مدح أبي الحسن

¹⁹ العشاء غالباً كسكس باللحم وبعد باسم شيخ الطريقة، ومع الكسكس هناك السماط: وهو خبز وزيتون.

يقرأون سورة قريش ثلاث مرات ويدعون بهذا الدعاء ثلاث مرات: «بسم الله العظيم، وسلطانه القديم، لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، اللهم اجعل فيه الشفاء والدواء» ثم ينشد المنشدون (المرزوقية)²⁰ قصائد حسب المناسبة، وبعد صلاة العشاء تتلى سلكة من القرآن مغايرة للسلكة التي تليت في المغارة، وتستمر التلاوة إلى نصف الليل.

أما في النصف الثاني من الليل فيقرأ شيخ الطريقة مع الحزابة حزب البحر دائماً ومعه حزب آخر من أحزاب الشاذلي حسب الترتيب التالي: في ليلة الجمعة الأولى يقرأ الحزب الكبير، وفي الثانية حزب الآيات وفي الثالثة حزب الحمد، وفي الرابعة وظائف حزب الحمد، وفي الخامسة حزب الفتح (الأسرار) ووظيفته، وفي السادسة حزب التوسل ووظيفته، وفي السابعة حزب اللطف ووظيفته. وتعاد نفس العملية بنفس الترتيب في الأسابيع الموالية إلى الأسبوع الرابع عشر: وفيه يقرأ الحزب الكبير ووظيفته الاختتام.

بعد قراءة الحزبين يسلم المريد على الشيخ وهو في المحراب، وتنشد بعض القصائد حسب المناسبة، ثم يخرج الشيخ وتغلق الأبواب ويطفأ النور، ويلبس المريدون البدن²¹، ويقومون بالذكر مبتدئين باسم الجلالة: ثم الضمير (هو) بنفس الطريقة التي رأيناها في المغارة ويستمررون في الذكر إلى طلوع الفجر، عند ذلك تفتح الأبواب ويضاء النور ويدخل الشيخ فينهى الذكر وتعرف عندهم هذه العملية بالفكة، ويؤكل السماط، وينصرف الجميع.

وعندما تنتهي الأسابيع الأربعة عشر في المقام يلتقي أتباع الطريقة يوم الخميس الموالي بحلق الوادي في زاوية سيدي الشريف ويقرأون حزب البحر وحزب اللطفر.

ولأتباع الشاذلي لقاءات أخرى خلال أيام الأسبوع في غير المغارة والمقام: وهم يلتقون يوم الأربعاء صباحاً في زاوية سيدي محرز ويقومون بنفس المراحل التي قاموا بها يوم

²⁰ المرزوقية: المنشدون في المقام الشاذلي، لعلها نسبة إلى مرزوق ذو الرزق.

²¹ البدن: هو عبارة عن لباس صوفي أبيض مع حزام في الوسط.

السبت في المغارة. وهم بذلك يخلدون جلوس أبي الحسن تحت قدمي سيدي محرز عندما يزوره كل يوم أربعاء. كما يلتقون مساء يوم السبت بخلوة أبي الحسن بسوق البلاط ويقرأون بعد صلاة المغرب ما قرأ بالمغارة صباحا، كما تقرأ أحزاب الشاذلي مرة في كل سنة في مقام أبي سعد الباجي بضاحية تونس الشمالية.

وللشاذلية بتونس فروع يلتقي أتباعها في أيام معينة من الأسبوع:

— فأتباع سيدي علي الخطاب يلتقون بزوايته بشاذلة (المرنافية اليوم) يوم الخميس.

— وأتباع السيدة الهنوبية يلتقون بهنوبة يوم الأحد.

— وأتباع العيساوية يلتقون بالقلالين بتونس يوم الجمعة.

وشيوخ الطريقة الشاذلية هو الذي يعين شيوخ هذه الطرق الفرعية للشاذلية.

ويخصص يوم للأخوة المغاربة من كل سنة (ويعرفون بالطيبة) لزيارة المقام بجبل

التوبة لا يشاركونهم فيه أحد.

ومنصب شيخ الطريقة الشاذلية هو منصب وراثي في عائلة كانت تعرف منذ

حوالي مائتي سنة بعائلة عمر المؤدب، ثم أصبحت تعرف بدار بلحسن نسبة للشيخ أبي الحسن الشاذلي .

وشيوخ الشاذلية هو دائما إمام جامع باب ال جزيرة الذي بناه أبي عبد الله المغربي .

أتباع الطريقة الشاذلية أغلبهم من الطبقة الأرستقراطية والبرجوازية التونسية. ولهذا

عدددهم ليس كبيرا، وكان لبعض أتباعها الفضل في تحرير تونس من الاستعمار الفرنسي .

والرئيس بن علي مهتم بمقام سيدي أبي الحسن الشاذلي وقد أمر أخيرا بترميمه والأشغال جارية في إلى يوم الناس هذا²².

²² كل هذه المعلومات عن "الطريقة الشاذلية اليوم بتونس" أخذتها مباشرة عن السيد مصطفى الزبيدي منظر الطريقة.